قراءة في قضية التأويل

عند سماحة آية الله العظمى الشهيد السعيد

محمد باقر الصدر قدس سره

الأستاذ المساعد الدكتور
مرتضى عباس
جامعة البصرة ـ كلية التربية للعلوم الإنسانية

قراءة في قضية التأويل عند سماحة آية الله العظمى الشهيد السعيد محمد باقر الصدر قدس سره

الأستاذ المساعد الدكتور
مرتضى عباس
جامعة البصرة ـ كلية التربية للعلوم الإنسانية

المقدمة:ـ

انه موضوع يستحق النظر والتأمل بما ظهرت ملامحه جلية لدى السيد الشهيد قدس سره وهذا واضح من خلال دراسة الموضوع على محورين أساسيين هما:-

المحور الأول:- التأويل في القران الكريم، وقد طرح فيه السيد قدس سره أفكاراً وآراء ذات قيمة علمية عالية.

المحور الثاني:- التأويل في قضية الإمام المهدي عجل الله فرجه، وقد طرح السيد قدس سره آراءه في ذلك من خلال تساؤلات عدة فأجابها في مضمار ومجال التأويل.

وقد تقدم هذين المحورين، تمهيد، كان الحديث فيه عن نبذة مختصرة لحياة السيد قدس سره، وعن ملامح التأويل أو الأصول العلمية لذلك لديه وكلا المحورين السابقين خاتمة بأهم نتائج البحث، بعدها قائمة بالمصادر والمراجع، يتلوها فهرس المحتويات.

ومن أهم مصادر ومراجع البحث ما اختص بحياته قدس سره ومنها ما تعلق بالتأويل عموما، وعنده قدس سره خصوصا.

وبعد، فالبحث محاولة في قراءة تراث عظماء التاريخ، ومحاورة ذلك التراث، قصد الاستفادة، والإفادة، وما توفيقي إلا بالله العلي العظيم.

التمهيد:

نبذة مختصرة في حياة السيد محمد باقر الصدر قدس سره الاجتماعية والعلمية...

ولد السيد محمد باقر الصدر قدس سره في ٢٥ ذي القعدة الهجرية القمرية في الكاظمية وقد تربى في كنف والدته وأخيه السيد إسماعيل الصدر بعد وفاة أبيه[١].

ولا يخفى على أهل الدراية والعلم ما لأسرة الصدر من مكانة اجتماعية وعلمية مرموقتين فضلا عما عرفوا به من الفضل والتقوى[٢].

فضلا عما لأسرة أخواله من آل ياسين من مكانة لا تقل شانا عن أسرة الصدر فيما سبق، فقد أحيط قدس سره برعاية خاله آية الله العظمى الشيخ محمد رضا آل ياسين، وخاله الفقيه الشيخ مرتضى آل ياسين، والشيخ راضي آل ياسين، وقد كان لأخيه السيد إسماعيل الصدر دور كبير في نشأته اجتماعيا وعلميا [٣].

وفضلا عن ذلك فإن لأساتذة السيد الشهيد قدس سره من أسرته وأخواله، وعلماء عصره مثل السيد محسن الحكيم، والسيد أبي القاسم الخوئي، وغيرهم من العلماء الأعلام (أعلى الله تعالى مقامهم وقدست أسرارهم)، دورا في نشأته الاجتماعية والعلمية وتبقى بعد ذلك كلمة تقال ان مستحصل العلم من تلك القنوات وبدرجة كبيرة، فانه مهيأ لمعرفة وسر أغوار العلم والدراسة والتفسير (بما فيه من مقدمات للخوض فيه من قبيل معرفة علوم اللغة العربية والناسخ والمنسوخ وغيرها) والنظر بعمق في التاريخ واستجلاء الحقائق والأمور منه.

إن السيد الشهيد محمد باقر الصدر قدس سره حاول جادا وفق الأطر والآفاق التفسيرية الجديدة تقريب معنى التأويل إلى الأذهان من خلال ما طرحه

سماحته قدس سره من آراء في تفسيره للمعنى بخصوص آيات القران الكريم مبتغيا تحديد المصداق الخارجي لتلك والذي ينطبق ذلك المعنى[٤]، وهي محاولة في الإسهام بدور كبير في توسيع وتوضيح آليات التفسير - إذا صح التعبير - أكثر فأكثر بما يؤدي إلى خدمة النص القرآني بشكل يساعد في خدمة المجتمع الإسلامي.

ولقد كانت محاولة الباحث الإسلامي المعروف (صائب عبد الحميد) في مناقشة (التأويل) عند السيد محمد باقر الصدر قدس سره قائمة على عرض أداء السيد قدس سره في أكثر الأحيان مع التطرق أحياناً إلى مسالة التأويل عند غير السيد قدس سره على سبيل طرح المفهوم عند غيره، ويبدو ذلك - فيما اعتقد - قد نأى بالأستاذ الباحث عن مناقشة مسالة التأويل عند السيد قدس سره مع ما للباحث من قيمة علمية جليلة، فقد ظهر البحث في أكثره عرضا لرأي السيد محمد باقر الصدر قدس سره وهو كتناول للتأويل في ميدان القران الكريم. وهذا لا يبتعد عن الخوض من لدن السيد الصدر قدس سره في قضية الإمام المهدي عجل الله فرجه ويومه الموعود وفق اطر تأويليه أيضاً تنهض على أساس القران الكريم، ومنه ما قام عليه بحثه قدس سره حول الإمام المهدي عجل الله فرجه، إذا قام على قوله تعالى: ﴿وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾[٥].

مع الاستفادة من التاريخ الذي لا ينفك عن القران الكريم، ولكن سماحة السيد محمد باقر الصدر يتناول مسالة التاريخ وفق فلسفة قائمة على منطلقات مستخرجة من القران الكريم في صورة مبادئ عامة تشكل استكشافية يستفيد منها فيلسوف التاريخ حتى لا ينطلق من فراغ[٦].

ومن نافلة القول أن التأويل عند سماحته قدس سره قام على أساس ما تقدم ذكره في القران الكريم مع بط ذلك بالتاريخ ولكن وفق فلسفة التاريخ لديه قدس سره

والتي أشهدها من القران الكريم بصورة مباشرة وغير مباشرة، وهذا كان من أسس الخوض في قضية الإمام الحجة ﷺ وما طرح فيها من تساؤلات قد أجاب عنها بملامح تأويلية ماثلة في فكره الكبير.

يمكن القول أن سماحة السيد محمد باقر الصدر قد كان من غاياته الوقوف على كثير من الحقائق المبتغاة من التأويل الذي يمكن استخدامه في إجلاء العبث والتركيز على المعاني الأساس وإزاحة اللامعنى الثاوي في اللاشيء سواء كان هذا الشيء نصاً دينياً أو لغوياً أو غير ذلك، فهو محاولة كشف الحقيقة في نهاية الأمر(٧).

وهذا مع ملاحظة اتساع ظاهرة أو دائرة التأويل في المجال الإسلامي (خاصة النصوص الدينية) وهذا طبيعي إذا ما عرفنا أن ذلك هو النمو الجيولوجي للظاهرة الدينية على نحو تراكمي(٨).

وفضلاً عما تقدم فالتأويل في جانبه الشرعي إذا صح التعبير هو ((صرف اللفظ عن معناه الظاهر إلى معنى يحتمله إذا كان المحتمل الذي يراه موافقا بالكتاب والسنة))(٩).

وهذا لا يبتعد - مع ما فيه من تقييد بالكتاب والسنة - عما يفيده التأويل من اجلاء جزء كبير من غموض النص مع اعطائه معنى معينا أو دلالة لا تبدو ظاهرة أول الأمر، فهو اجتهاد فاعل في النص يجلي غموضه حينا ويعين معانيه حيناً آخر أو استنباط دلالة غير جلية فيه أخيراً(١٠).

ومع ما تقدم فانه ينبغي في مجال النصوص الدينية بشكل خاص على المؤول التسلح بكل أسلحة الفقيه الحقيقي وهذا يصحبه وعي دائم بحركة الواقع، مع الوعي بضرورة توسيع دلالات النصوص لتلائم حركة ذلك الواقع، وهذا يضع العلوم نقلية كانت أم عقلية، قديمة أم حديثة أدوات للتأويل(١١).

وخطى السيد محمد باقر الصدر ﷺ في التأويل متوافقة إلى حد كبير سواء على مستوى القران الكريم أم على مستوى بحثه حول الإمام الحجة المهدي ﷺ نتيجة وعيه الكبير لذلك.

المحور الأول

قضية التأويل في القران الكريم

يشير سماحة السيد محمد باقر الصدر ﷺ إلى أن (التأويل) كلمة ظهرت إلى صف كلمة التفسير في بحوث القران عند المفسرين والتي اعتبرت عندهم (أي المفسرين) متفقة بصورة جوهرية مع كلمة التفسير في المعنى، إذ الكلمتان تدلان على بيان معنى اللفظ والكشف عنه،وكاد المفسرون أن يتفقوا على التوافق بين كلمتي التفسير والتأويل بشكل عام، ولكن اختلفوا في تحديد مدى التطابق بين الكلمتين(١٢).

وقد أشار سماحته ﷺ إلى بعض اتجاهات ومذاهب المفسرين في التفسير والتأويل فالاتجاه العام لدى (قدماء المفسرين) يميل إلى القول بالترادف بين (التفسير والتأويل) والاتجاه العام لدى من (تأخر عنهم من المفسرين) يميل إلى القول بان التفسير يخالف التأويل في بعض الحدود: أما في طبيعة المجال المفسر والمؤول، أي أن التأويل يصدق بالنسبة إلى كل كلام له معنى ظاهر، فيحمل على غير المعنى، فيكون هذا المعنى تأويلاً، وأما التفسير فاعم منه، أو يخالف التأويل التفسير في نوع الحكم الذي يصدره المعسر والمؤول، فالتفسير أحكامه قطعية والتأويل أحكامه ترجيحية، أو يخالف التأويل التفسير في طبيعة الدليل الذي يعتمد عليه التفسير والتأويل فالتفسير يعتمد في بيان مدلول اللفظ على الدليل الشرعي، والتأويل يعتمد في ذلك على الدليل العقلي(١٣).

موقف السيد محمد باقر الصدر من التأويل ومن الاتجاهات السابقة.

يبين سماحته قدس سره أن البحث هنا لو كان اصطلاحيا لامكن قبول كل الوجوه السابقة في تحديد معنى مصطلحي لكلمة التأويل في علم التفسير، لأن المفسر يحتاج كل تلك المعاني فيمكنه أن يصطلح على التعبير عن أي واحد من تلك المعاني بكلمة التأويل، لكي يشير إلى مجال خاص أو درجة معينة من الدليل ولا خرج عليه في ذلك[١٤]، ولكن الخطر يكمن في اتخاذ المعنى المصطلح معنى وحيدا للفظ، وفهم كلمة التأويل على أساسه إذ جاءت في النص الشرعي، وفضلا عن ذلك فيشير سماحته قدس سره انه بملاحظة كلمة (التأويل) وموارد استعلاماتها في القران الكريم نجد لها معنى آخر، ولا يتفق مع ذلك المعنى الاصطلاحي الذي يجعلها بمعنى التفسير ولا يميزها عنه إلا في الحدود والتفصيلات[١٥].

فقد جاءت كلمة التأويل في سبع سور من القرآن الكريم - والقول للسيد قدس سره - إحداها (سورة آل عمران /٧) ففيها قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ...﴾.

والأخرى: (سورة النساء /٥٩) ففيها قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾.

والثالثة: (سورة الأعراف /٥٢) ففيها قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْنَاهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَى عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ * هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ...﴾.

والرابعة: (سورة يونس /٣٩) ففيها قوله تعالى: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ...﴾.

والخامسة: (سورة يوسف /٦) جاء فيها قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ...﴾.

والسادسة والسابعة: (سورتا الاسراء /٣٥، والكهف /٧٨) فقد جاءت كلمة التأويل فيهما على هذا المنوال وبدراسة هذه الآيات نعرف ان كلمة التأويل لم ترد فيها بمعنى التفسير وبيان مدلول اللفظ، ولا يبدو إمكانية ورودها بهذا المعنى إلا في الآية الأولى فقط، لأن الآية الأولى كان التأويل فيها قد أضيف إلى الآيات المتشابهة [١٦].

وهذا الموقف الذي وقفه أولئك المفسرون من هذه الآية، وحملهم لكلمة التأويل على ضرب من التفسير نتيجة لانسياقهم مع المعنى الاصطلاحي لكلمة التأويل، ويضيف سماحته قدس سره ان المعنى الذي يناسب بقية الآيات السابقة هو كون المراد بتأويل الشيء ما يؤول إليه، ولهذا أضيف التأويل إلى الرد إلى الله والرسول تارة، والى الكتاب أخرى، والى الرؤيا، والى الوزن بالقسطاس المستقيم، وأشار سماحته إلى ان اختصاص الله سبحانه وتعالى والراسخين في العلم بالعلم بتأويل الآيات المتشابهة لا يعني ان تلك الآيات ليس لها معنى مفهوم، وان الله تعالى وحده يعلم بمدلول اللفظ وتفسير، بل يعني ان الله وحده يعلم بالواقع الذي تشير اليه تلك المعاني ويستوعب حدوده وكنهه[١٧]، وفضلا عن ذلك، فان المخصوص بالله هو تأويل الآيات المتشابهة بمعنى تفسير معانيها.

وفي ضوء ما تقدم يضاف الى المعاني الاصطلاحية التي لكلمة التأويل معنى آخر هو تفسير معنى اللفظ، والبحث عن استيعاب ما يؤول إليه المفهوم العام،

ويتجسد به من صورة [١٨].

وبناء على ما تقدم فالشهيد الصدر قدس سره يعد من الرواد المحدثين في بيان مفاهيم التأويل الأصح مع ما للتأويل من معان أخرى، وهذا يعد إسهام في إرساء أسس جديدة ومهمة للتفسير ومنهجه.

المحور الثاني

قضية التأويل في مسالة الإمام الحجة عجل الله فرجه الشريف

يتناول السيد محمد باق الصدر هذا الموضوع على أساس ما يأتي:-

أولاً: يشير سماحته قدس سره إلى أن فكرة الإمام المهدي عجل الله فرجه الشريف قديمة حتى أقدم من الإسلام وأوسع منه، إذ البشرية عانت ما عانت من ظلم وظروف صعبة جعلت الناس تترقب يوما يظهر فيه منقذ لهم من ذلك، وأما الإسلام فهو مع ذلك فإنه أوضح صفات الإمام عجل الله فرجه الشريف وعلامات ذلك الظهور الميمون، وأضاف إلى فكر الناس أن ذلك الإنسان لا زال حيا حتى يوم الظهور ويرى ويسمع ما يحصل لنا وقدر له عن عدم الإعلان عن نفسه[١٩].

ثانياً: يشير سماحته إلى فكرة ظهور الإمام المنتظر عجل الله فرجه الشريف شابها تساؤلات أو شكوك كثيرة من الناس ليس من ورائها الدافع الفكري فقط بل يضيف سماحته قدس سره وجود دافع شعوري أو نفسي بمعية الواقع المدير والمسيطر عالميا وضالة أي فرصة لتغييره من الجذور[٢٠].

أجوبة التساؤلات وفق تأويلة السيد محمد باقر الصدر قدس سره

١- هل بإمكان إنسان العيش قرونا طويلة، يجيب سماحته على ذلك وفق ثلاثة معانٍ لكلمة الإمكان هي: ((الإمكان العملي، والعلمي، والمنطقي

أو الفلسفي))، الامكان العملي أي ممكن ذلك العيش من الناس جميعا تقريبا، والإمكان العملي، هناك أشياء قد لا تحدث عمليا لي أو لك، ولكن العلم لا يمنع من حصولها في كثير من الأمور.

الإمكان المنطقي أو الفلسفي، إذ لا يوجد لدى العقل قوانين قبلية تبرر رفض الشيء والحكم باستحالته، ولا شك في امتداد عمر الإنسان آلاف السنين ممكن منطقياً، فذلك ليس مستحيلاً من وجهة نظر تجريدية وكامكان عملي لا يكون ذلك، لان العلم بوسائله وأدواته الحاضرة فعلا والمعاصرة لا تستطيع أن تمدد عمر الإنسان مئات السنين، وكامكان عملي فلا يوجد علميا اليوم ما يبرر رفض ذلك من الناحية النظرية. وبشكل ملخص ان طول عمر الإنسان وبقاءه قرونا متعددة أمر ممكن منطقيا وعلميا ولكنه لا يزال غير ممكن عمليا، إلا إن اتجاه العلم سائر في طريق تحقيق هذا الامكان عبر طريق طويل(٢١).

وفضلاً عما تقدم فسماحته ﷺ يطرح مسالة كيف يسبق الإسلام - الذي صمم عمر القائد المنتظر - حركة العلم في مجال التحويل للممكن منطقيا إلى ممكن عمليا (كسبق من سبق العلم في اكتشاف دواء ذات السحايا أو دواء ذات السرطان)، وكذلك كان جواب سماحته أن الإسلام سبق العلم في مجالات عدة كسبق الشريعة الإسلامية ككل لحركة العلم والتطور الطبيعي للفكر الإنساني، فضلا عن كشف رسالة السماء أسراراً من الكون لم تكن تخطر على بال إنسان، ثم جاء العلم ليثبتها، ومثال آخر (أسراء بالرسول ﷺ من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى) وهذا الاسراء وفق القوانين الطبيعية تم الاستفادة منها (أي القوانين) بشكل لم يتح للعلم تحقيقه إلا بعد مئات السنين، فلماذا لا يكون ذلك الممكن للإمام الحجة ﷺ. وفضلاً عن ذلك فقد عاش في قومه ألف عام إلا خمسين سنة وهو نبي الله نوح ﷺ، وهذا ممكن

للإمام الحجة عجل الله فرجه[٢٢].

٢- وفضلا عما تقدم من تعطيل القوانين الطبيعية، فسماحته قدس سره أشار إلى مخالفة قانون الطبيعة في انتقال الحرارة من الجسم الأكثر إلى الأقل وذلك من خلال الاستدلال بمعجزة حماية إبراهيم عليه السلام وكيف فلق البحر لموسى عليه السلام وكيف شبه للرومان إنهم قبضوا على عيسى عليه السلام وكيف خرج الرسول محمد صلى الله عليه وآله من داره وهي محفوفة بحشود قريش وكيف لم ير هؤلاء والرسول صلى الله عليه وآله يمشي بينهم، ويقول سماحته قدس سره انه كلما توقف الحفاظ على حياة حجة الله في الأرض على تعطيل قانون طبيعي وكانت إدامة حياة ذلك الشخص ضرورية لانجاز مهمته التي أعد لها، تدخلت العناية الربانية في تعطيل ذلك القانون لانجاز ذلك، وبخلاف ذلك أي إذا كان الشخص قد انتهت مهمته التي اعد لها ربانيا فانه سيلقى حتفه ويموت أو يستشهد وفقا لما تقرره القوانين الطبيعية[٢٣].

٣- لماذا كل هذا الحرص من الله سبحانه وتعالى على هذا الإنسان بالذات (أي الإمام لحجة عجل الله فرجه) أي ما فائدة هذه الغيبة الطويلة وما المبرر لها؟ وسماحته قدس سره يشير إلى أننا نؤمن بان الأئمة الاثني عشر عليهم السلام مجموعة فريدة لا يمكن التعويض عن أي واحد منهم، والناس هنا لا يريدون تفسيرا غيبيا بل يريدون تفسيرا اجتماعيا ؟ وأجاب سماحته قدس سره أنه لما كانت رسالة اليوم الموعود تغيير عالم مليء بالظلم والجور تغييرا شاملا بكل قيمه الحضارية، فلا بد من شخص يتصف بشعور نفسي كبير للغاية تجاه ذلك العالم بحيث يتناسب ذلك الشعور مع حجم التغيير نفسه، ويتطلب كذلك ان يكون ذلك الشخص ليس من مواليد ذلك العالم الذين نشأوا في تلك الحضارة المراد تقويضها واستبدالها بحضارة العدل والحق، لان من ينشأ في ظل حضارة راسخة تعمر الدنيا بسلطانها

وقيمها، يعيش في نفسه الشعور بالهيبة تجاهها لأنه ولد وهي قائمة، ونشأ صغيرا وهي جبارة، وخلافا لذلك ان يكون هناك شخص يتوغل في التاريخ وعاش الدنيا قبل ان ترى تلك الحضارة النور، ورأى الحضارات الكبيرة سادت العالم الواحد تلو الأخرى ثم تداعت وانهارت وهو رأى ذلك بعينه وعاشه بنفسه وصولاً إلى ذلك اليوم الموعود[٢٤].

وذلك الشخص عاش وهو مؤمن بان كل حضارة ستزول متى تصل الحضارة الموعودة في يومها المأمول على خلاف (بان باك روسو) الذي كان ينظر إلى الملكية بنظرة كان يرعبه فيها التصور بان فرنسا تبقى بدون ملك[٢٥].

وفضلاً عما تقدم فهذه المعاصرة للحضارات التي واكبها تمده بالرصيد الفكري والمعرفي، وكذلك فان اعتماد الإسلام كاس للتغيير، فذلك طبيعي من حيث ان ذلك الأمر يتطلب قائدا قريبا من مصادر الإسلام الأولى وتغذى من الحضارة الإسلامية النقية بخلاف الأفكار المشوبة من حضارات أخرى، ولكي يضمن عدم تأثير القائد المدخير بالحضارة الذي اعد لاستبدالها لابد أن تكون شخصيته قد نسيت بناء كاملا في مرحلة حضارية سابقة هي اقرب ما تأكون في الروح العامة، ومن ناحية المبدأ إلى الحالة الحضارية التي يتجه اليوم الموعود إلى تحقيقها بقيادته[٢٦].

٤- كيف اكتمل اعداد القائد المنتظر؟ مع انه لم يعاصر أباه الإمام العسكري عليه السلام إلا خمس سنوات وهي فترة الطفولة. والجواب أن الإمام الحجة عجل الله فرجه قد خلف أباه العسكري عليه السلام في إمامة المسلمين وهذا يعني أنه كان إماماً بكل ما في الإمامة من محتوى فكري وروحي في وقت مبكر جدا من حياته الشريفة، والإمامة المبكرة ظاهرة مسبقة إليها عدد من آبائه عليهم السلام فالإمام محمد الجواد عليه السلام تولى الإمامة في الثامنة من

عمره، والإمام علي بن محمد الهادي تولى الإمامة في التاسعة من عمره، وأبو الإمام محمد الحسن العسكري والد الإمام الحجة عجل الله فرجه تولى الإمامة وهو في الثانية والعشرين من عمره،وهذا لا يعني انتقال الإمامة في أهل البيت عليهم السلام بالوراثة، وإنما كان ذلك مكتسبا ومدعوما من قواعدهم الشعبية الواسعة لما لهم من تغلغل روحي وفكري وحاجة عظيمة في نفوس تلك القواعد التي بنيت منذ صدر الإسلام وازدهرت واتسعت في عهد الإمامين محمد الباقر وجعفر الصادق عليهما السلام ولمدرسة الإمام الصادق عليه السلام عظيم الأثر في ذلك من خلال ما بذره في نفوس الدارسين والناس من بذور الفكر والعقيدة مع تخريج المئات من الفقهاء والمتكلمين والمفسرين وغيرهم وهي مدرسة عرفت بكفائتها وتضحياتها في سبيل العقيدة في الإمامة الحقة، وفضلا عن ذلك فالأئمة عليهم السلام لم يكونوا معزولين عن الناس ولم يكونوا في بروج عالية، وإنما حياتهم كحياة الناس أو اقل منهم، وان ابتعد الأئمة عن الناس فبسبب السجن الذي لم يعزلهم عن الناس، فكانوا يتصلون معهم بالمكاتبات، والرواة ووكلاء وسفراء كالإمام الحجة في الغيبة الصغرى.

فالإمام الذي يظهر أمام الناس ويعلن إمامته يكون فعلا ما تقدم على قدر عال جداً من ذلك، فانه لو لا صحة تلك الإمامة (المبكرة خاصة) لما لقيت ذلك الترحيب من القواعد الشعبية، ومع ذلك فإنه إذا لم يتحرك الناس ضد من قال بالإمامة (وهو أهل لها) فهل ستستمر تلك المسالة زمنا طويلاً والمنتطق يجيب بـ(لا)، وحتى ان السلطة ستعتقل ذلك الإمام وتقضي عليه وعلى خط الإمامة عموما، ولكن صحة تلك الإمامة مع ما سبق ذكره اثبت أحقيتها لأهل البيت عليهم السلام. وفضلا عن ذلك فتسلم الأمور وقيادة الأمة مذكور في القرآن الكريم كما تسلم النبي (يحيى) عليه السلام الحكم صبيا وغير ذلك[٢٧].

٥- كيف نؤمن ان الإمام الحجة قد وجد ﷺ. والجواب: انه مع ما جاء في أحاديث الرسول ﷺ وروايات أهل البيت عليهم السلام تؤكد على ذلك. والتركيز هنا على الإمام الثاني عشر (الإمام الحجة عج) له مبرراته التي تتلخص عند السيد محمد باقر الصدر في دليلين هما:-

دليل (إسلامي) والآخر (علمي). ((فالدليل الإسلامي)) يقوم أو يتمثل في مئات الروايات الواردة عن الرسول ﷺ والأئمة عليهم السلام والتي تدل على تعيين المهدي ﷺ وكونه من أهل البيت ومن ولد فاطمة ومن ذرية الحسين وانه التاسع من ولد الحسين وان الخلفاء اثنا عشر. وهذا موجود في كتب الصحاح خاصة وكتب الحديث الأخرى عامة. والبخاري واحد من رواة الحديث وصاحب (صحيح البخاري) وقد عاصر الأئمة عليهم السلام كل من الإمام الجواد والامامين الهادي والعسكري عليهما السلام، وهذا فيه مغزى كبير. أما (الدليل العلمي) وهي فترة الغيبة الصغرى وامدها سبعون سنة تقريبا وهي تمهيد للقواعد الشعبية كي يعتادوا على الغيبة الكبرى وكان يتصل بالناس بوساطة السفراء الاربعة وكان مكلفين من الإمام بمهام النيابة فكانوا يوصلون المراسلات والاتصالات والتوقيعات والرسائل من والى الإمام الحجة ﷺ بخط واحد وسليقة واحدة منه ﷺ طيلة فترة النيابة وحتى إعلان النائب الرابع (السمري) انتهاء الغيبة الصغرى وابتداء الغيبة الكبرى التي مهدت الغيبة الصغرى التعود هنا على عدم الصدمة بالفراغ الهائل بسبب غياب الإمام الحجة ﷺ وتحولت النيابة من السفراء الى المجتهدين العادلين وهو خط عام وبعد ذلك كيف لأكذوبة ان تبقى سبعين عاما (الغيبة الصغرى) وحتى هذا اليوم وعلى اتفاق عندنا على شخصية الإمام الحجة ﷺ بهذه الصفحات [٢٨].

٦- لماذا لم يظهر القائد طيلة هذه المدة؟ خاصة في فترة الغيبة الصغرى مع تهيء كثير من الظروف لذلك كمفهوم عام فان كل عملية تغيير

اجتماعي مثلا يرتبط نجاحها بظروف وأمور خاصة ودقيقة لنجاحها، وعملية التغيير الاجتماعي التي تفسرها السماء على الأرض فتلك لا ترتبط في حاجتها الرسالي بالظروف الموضوعية غير انها في جانبها التنفيذي تعتمد على الظروف الموضوعية من حيث النجاح وقبله التنفيذ وغير ذلك كمجيء رسالة الإسلام على يد الرسول صلى الله عليه وآله بعد خمسة قرون من الجاهلية هيأت ومكنت من ذلك كتنفيذ ونجاح وهذه الظروف واسعة وليست بسيطة ولو كانت كذلك، لكانت عملية التغيير الشامل منذ خروج الرسول صلى الله عليه وآله برسالته منذ ذاك العهد وربما ان ظروف الحياة أو الحضارة المادية في وقت ظهور الإمام الحجة عجل الله فرجه هي الأفضل والأحسن لخروجه عجل الله فرجه وليست كتلك الظروف في عصر الغيبة الصغرى. وفضلا عما قد يرد من انه هناك ظروف عسكرية وقتالية تساعد في الظهور الميمون، ولكن ربما - وهذا شيء مهم جدا - ان تلك الظروف والعوامل العسكرية تنقصها وشل كبير القوة النفسية للإنسان وهذا لا ينفع في المساعدة للظهور وخروج الإمام الحجة عجل الله فرجه[٢٩].

٧- هل للفرد مهما كان عظيما القدرة في انجاز هذا الدور العظيم؟ للفرد دور كبير في حالة مهمة هنا كما يشير سماحته قدس سره فالإنسان بالرغم من انه يشكل عاملا ثانويا في ذلك التغيير على ما يفسره التاريخ، والقوى الموضوعية المحيطة به هي القاتل الاساس، ولكن يبقى دور الفرد في أفضل الأحوال (التعبير الذكي) عن اتجاه هذا العامل الأساس. ومثال ذلك واضح فإن النبي صلى الله عليه وآله بحكم صلته الرسالية بالسماء تسلم بنفسه زمام الحركة التاريخية وإنشاء مداً حضاريا لم يكن بامكان الظروف الموضوعية المحيطة به ان تتمخض عنه بحال من الأحوال[٣٠].

وهذا الأمر نفسه مع الحجة المنتظر عجل الله فرجه كما هو حاصل مع جده المصطفى صلى الله عليه وآله.

٨- ما هي طريقة التغيير في اليوم الموعود؟...

ذلك يعتمد على ظروف وأحوال وأوضاع المرحلة التي سيخرج فيها الإمام الحجة عجل الله فرجه.. ويقول سماحته قدس سره هناك افتراض أساس واحد بالإمكان قبوله على ضوء الأحاديث المتحدثة عنه والتجارب الحاصلة في عمليات التغيير الكبرى في التاريخ وهو افتراض ((ظهور الحجة المنتظر عجل الله فرجه)) في أعقاب فراغ كبير يحدث نتيجة نكسة أو أزمة حضارية خانقة. وذلك الفراغ يتيح المجال لذلك الظهور ولتلك الرسالة الجديدة مع العوامل النفسية وغيرها لاستقبال ظهور الإمام عجل الله فرجه حتى يملأ الأرض قسطاً وعدلاً بعدما ملئت ظلماً وجوراً[٣١].

الخاتمة:ـ

إن ما تقدم يخالص بنا للوقوف على نتائج توصل إليها البحث يمكن تلخيصها وكالاتي:-

١- كان لنشأة السيد محمد باقر الصدر قدس سره الأسرية، ونشأته على أساتذته من العلماء دوره الكبير في نبوغ الفكر والوعي لديه بما هيأه له من رصيد علمي كبير لدراسة القران الكريم والتدبر فيه ومنه تأويله، وكذلك النظر في قضايا التاريخ المحتملة للتأويل والخوض فيها بجهد مشهود له محاولا الاستفادة من القران الكريم والتاريخ والربط بينهما بصورة مباشرة وغير مباشرة مستفيدا من هذا في خدمة الواقع.

٢- كانت محاولته قدس سره في التأويل، إنما هي محاولة كشف الحقيقة أو السعي لأجل التركيز على المعاني الأساس وإزاحة اللامعنى الثاوي في اللاشيء، وقد حاول سماحته قدس سره توسيع دلالات النصوص بما في

النص من طواعية عالية لذلك، وبما يلائم حركة الواقع.

٣- أضاف السيد قدس سره إلى المعاني الاصطلاحية لكلمة التأويل معنى آخر هو تفسير معنى اللفظ وهذا في اغلبه على صعيد القران الكريم، مع البحث عن استيعاب ما يؤول إليه المفهوم العام للمؤول.

٤- إن السيد محمد باقر الصدر طرح التأويل في قضية الحجة المنتظر عجل الله فرجه على شكل تساؤلات، محاولة منه في السعي إلى تنظيم وترتيب استيعاب ذلك وفق ما قام عليه من تنظيم وترتيب وحتى التساؤلات أخذت ترتيبا تصاعديا بتسلسلها المنطقي، وهذا بدوره يضفي على التأويل هنا تسلسلا منطقيا وكأنه يقوم على درجات من التطور والشمول.

٥- حاول بيان التأويل وفق اطر واقعية وعلمية وهذا على صعيد القران الكريم، وقضية الإمام الحجة عجل الله فرجه بمناقشة الإمكانات العلمية والعملية والمنطقية والقوانين الطبيعية للحياة.

٦- الاستفادة من الاستدلالات المتقدمة الذكر ((العلمية وغيرها)) والتاريخية والفقهية في قضية التأويل.

٧- ظهر التأويل عنده قدس سره واضحا من خلال آرائه واحتمالاته الترجيحية المسندة بالدلالة والمصاديق، وهذا دليل على سعة علمه ومعرفته فيما خاض فيه من ميادين العلم والمعرفة.

وبعد فلا ادعي الكمال وفي هذا العمل، ولكن هي محاولة خدمة تراثنا العظيم ورجال الفكر وجهابذته العلماء... والحمد لله رب العالمين..

هوامش البحث

(١) ينظر: شذرات من حياة السيد الشهيد اية الله العظمى السيد محمد باقر الصدر، مقدمة بقلم ولي أمير المؤمنين السيد كاظم الحائري (دام ظله)، مطبعة انصار الله للطباعة والنشر والتوزيع، ط١ - ١٤٢٤هـ، ص١٠.

(٢) ينظر: شذرات من حياة الشهيد آية الله العظمى السيد محمد باقر الصدر، السيد كاظم الحائري، ص٦.

(٣) ينظر: محمد باقر الصدر - دراسات في حياته وفكره نخبة من الباحثين، مؤسسة دار السلام، ط١، ١٩٩٦م، ص٤٧.

(٤) ينظر: محمد باقر الصدر، دراسات في حياته وفكره، نخبة من الباحثين، مؤسسة دار السلام، بيروت، ط١، ١٩٩٦، ص٣٧٧.

(٥) سورة القصص: الآية ٥.

(٦) ينظر: محمد باقر الصدر، دراسات في حياته وفكره، نخبة من الباحثين، ص١٩٤.

(٧) ينظر: التأويل مقاربة اصولية، موقع افاق تراثية، عمر بيشو، ص٢،، ١٤٢١/٣/١٤هـ.

(٨) ينظر: التأويل مقاومة اصولية، موقع افاق تراثية، عمر بيشو، ص٣.

(٩) التعريفات: لابي الحسن الجرجاني، دار الكتاب اللبناني، ط١، ١٩٨٥، ص٧٢.

(١٠) ينظر: يناعة المعنى وتاويل النص، منشورات كلية الاداب بمنوبة ١٩٩٢، (من النص الى سلطة التأويل، الحبيب شبيل، ص٤٤٨.

(١١) ينظر: مفهوم النص، دراسة في علوم القران، د. نصر حامد أبو زيد، المركز الثقافي العربي للطباعة والنشر والتوزيع، ط٢، ١٩٩٤، ص٢٤٠-٢٤١.

(١٢) ينظر: المدرسة القرآنية، السيد محمد باقر الصدر، ص٣٠٠-٣٠١.

(١٣) ينظر المدرسة القرآنية، السيد محمد باقر الصدر، ص٣٠١-٣٠٢.

(١٤) ينظر: المصدر نفسه، ص٣٠٢.

(١٥) ينظر: المدرسة القرآنية، السيد محمد باقر الصدر، ص٣٠٢.

() ينظر: المدرسة القرانية، السيد محمد باقر الصدر، ص٣٠٢-٣٠٣.

(١٧) ينظر: المصدر نفسه، ص٣٠٤-٣٠٥.

(١٨) المصدر القرانية، السيد محمد باقر الصدر، ص٣٠٥-٣٠٦.

(١٩) ينظر: تاريخ الغيبة الصغرى، ١/١٧-١٨.

(٢٠) ينظر: تاريخ الغيبة الصغرى، ١/٢٣-٢٤.

(٢١) ينظر: تاريخ الغيبة الصغرى، ١/٣٠-٣٣.

(٢٢) ينظر: تاريخ الغيبة الصغرى، ١/٣٤-٣٧.
(٢٣) ينظر: تاريخ الغيبة الصغرى،١/٣٩-٤٠.
(٢٤) ينظر: تاريخ الغيبة الصغرى، ١/٤٦-٤٩.
(٢٥) ينظر: تاريخ الغيبة الصغرى، ١/٥٠.
(٢٦) ينظر: تاريخ الغيبة الصغرى، ١/٥٢-٥٣.
(٢٧) ينظر: تاريخ الغيبة الصغرى، ١/٥٥-٦٤.
(٢٨) ينظر: تاريخ الغيبة الصغرى، ١/٦٦-٧٤.
(٢٩) ينظر: تاريخ الغيبة الصغرى، ١/٧٧-٨٣.
(٣٠) ينظر: تاريخ الغيبة الصغرى، ١/٨٥-٨٦.
(٣١) ينظر: تاريخ الغيبة الصغرى، ١/٨٩.

قائمة المصادر

١- القران الكريم.

٢- التأويل مقاربة أصولية، عمر بيشو، موقع (آفاق تراثية، ١٤/٣/١٤٢١هـ).

٣- تاريخ الغيبة الصغرى، تأليف الشهيد السعيد السيد محمد محمد صادق الصدر، مؤسسة دار الهدى، إيران، ط١، ١٤٢٥هـ - ١٣٨٣ش.

٤- التعريفات، لأبي الحسن الجرجاني، دار الكتاب اللبناني، ط١، ١٩٨٥م.

٥- شذرات من حياة الشهيد آية الله العظمى السيد محمد باقر الصدر، مقدمة بقلم آية الله العظمى السيد كاظم الحائري، مطبعة أنصار الله للطباعة والنشر والتوزيع، ط١، ١٤٢٤هـ.

٦- صناعة المعنى وتأويل النص، منشورات كلية الآداب بمنوبة ١٩٩٢م.

٧- محمد باقر الصدر - دراسات في حياته وفكره، نخبة من الباحثين، مؤسسة دار الإسلام، ط١ - ١٩٩٦م.

٨- المدرسة القرآنية، تأليف سماحة آية الله العظمى الإمام الشهيد السيد محمد باقر الصدر، مركز الأبحاث والدراسات التخصصية للشهيد الصدر ﷺ، مطبعة شريعت - قم، ط٢، ١٤٢٤هـ. ق.

٩- مفهوم النص - دراسة في علوم القران، د. نصر حامد أبو زيد، المركز الثقافي العربي للطباعة والنشر والتوزيع، ط٢، ١٩٩٤ م.